معالم الإصلاح التعليمي في فكر الإمام عبد الحميد بن باديس*

المقدمة: العلم نور القلوب والعلماء دواؤها، فإذا صلحوا صلح الجسد كلّه، وإذا فسدوا فسد الجسد كلّه، ولن يصلح العلماء إلاّ إذا صلح تعليمهم، ولن يصلح التعليم إلاّ إذا رجع إلى مشكاة النبوة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (...إنّ الله لم يبعثني معنّتا ولا متعنّتا، ولكن بعثني معلّما ميسّرا) رواه مسلم في صحيحه: (٤/١٨٧-١٨٨رقم: ٣٧٦٣)

ولقد كان التعليم في صدر الإسلام مبناه على التفقه العام في القرآن والسنة، روى ابن عبد البر في الجامع عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(١١- الآية 79 من سورة آل عمران) قال الضحاك: حق على كلّ من تعلم القرآن أن يكون فقيها "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر: ١٦٧/٢، في باب "رتب الطلب والنصيحة في المذهب"

ولقد كان لجامع الزيتونة منزلة خاصة لأهميته الدينية والعلمية، وكان منارة للعلم والتعليم على مرّ الزمن ارتحل إليه الطلاب من مختلف أنحاء أرض الإسلام، تخرج منه العلماء والقضاة.

لقد ساء ابن باديس ما وصل إليه جامع الزيتونة بعد تخرجه منه فطرح رؤية إصلاحية ظهرت بوادرها من خلال المقالات العلمية حول وضعية التعليم فيه، فبين مستوى التدهور الذي كان يعانيه في مناهجه ووسائله، فيقول: (قد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة، ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أوأدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يومًا منزلة القرآن من تعلّم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك، هذا في جامع الزيتونة، فدع عنك الحديث عن غيره مما هودونه بمديد المراحل). وقال في معرض آخر يصف تغييب الغاية من التعليم من خلال التركيز على علوم الآلة (وفي جامع الزيتونة عمّره الله تعالى، إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس التفسير -ويا للمصيبة- يقع في خصومات لفظية... في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أيامًا وشهورًا، فتنتهي السنة، وهولازال حيث ابتدأ أوما تجاوزه إلا قليلاً، دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى سنته في المماحكة، بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية،

*- أ. خير الدين فلاح- قسم الحضارة الإسلامية- كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية- ج. وهران.

لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية، فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن).

ولقد شارك ابن باديس في مشروع إصلاح التعليم في جامع الزيتونة بتونس، فبعث بمقترحاتـــه إلى لجنة وضع مناهج الإصلاح التي شكّلها حاكم تونس سنة 1931، وتضمن اقتراحه خلاصة آرائه في التربية والتعليم، فشمل المواد العلمية والمناهج التعليمية والتخصصات البداغوجية.

والبحث إذ يطرح منهج ابن باديس في إصلاح التعليم فهويبرز إشكالية ضعف مردودية التعليم في العالم الإسلامي، وعدم مسايرة مناهجه للعصر، وابتعاد وسائله عن الأثر في الأنفس، والمجتمعات.

ولقد وسمته بـــ: معالم الإصلاح التعليمي في فكر الإمام عبد الحميد بن باديس "جامع الزيتونة نموذجا: قراءة في المناهج والأهداف" ثم قسمته إلى:

مدخل تمهيدي.

– المبحث الأول الإصلاح التعليمي منطلقات، ومرتكزات.

– المطلب الأول المنطلقات الأساسية في إصلاح التعليم عند ابن باديس.

– المطلب الثاني: المثلثات الباديسية في عملية الإصلاح التعليمية.

– المطلب الثالث: المرتكزات الأساسية في إصلاح التعليم عند ابن باديس.

– المبحث الثاني: الإصلاح التعليمي أدواء وأدوية.

– المطلب الأول: الأخطاء المنهجية في التعليم الزيتوني.

– المطلب الثاني: الأهداف التربوية من الإصلاح التعليمي عند ابن باديس.

التمهيد

ابن باديس فسيلة الخير ومعدن الإصلاح: في مدينة قسنطينة، ومن أسرة عريقة وُلد الشيخ عبـــد الحميد بن باديس عام 1308 هـــ/1889م، ينتسب إلى الأسرة الباديسية المشهورة. فالمعز بـــن بـــاديس (406–453) هوالذي أبعد النفوذ العُبيدي (الفاطمي) عن المغرب، وعمل على تنظيم المغرب الإســـلامي سياسياً، ومذهبياً عن الحكم العبيدي، وحارب الرافضة في إفريقـــية، وحمل الناس على اعتناق المـــذهب السني، وكان الشيخ عبد الحميد يفتخر بأعمال هذا الجد، أما والده محمد المصطفى فهومن كبار الموظفين والوجهاء، وقد عرف بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين في قسنطينة، يقول عنه ابنه: "إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي ربابي تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها، ومـــشرباً أرده، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً.."[1].

ابن باديس على خطى ابن عاشور الإصلاحية: إن فكرة الإصلاح التعليمي الزيتوني عند ابن باديس هي امتداد طبيعي لتيار الحركة الإصلاحية التعليمية في جامع الزيتونة والتي قادها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بعد أن عين عضوا في لجنة إصلاح التعليم الزيتوني سنة 1924 ثم باشر تنفيذ الإصلاحات العميقة سنة 1932 لما عين شيخا لجامع الزيتونة[2].

حقيقة المنهج العلمي عند ابن باديس: تقوم حقيقة المنهج التعلمي في التصور الإسلامي على الأسس المكونة للعلاقة الصحيحة لقيام الدور الإنساني في الوجود الحضاري من خلال الربط بين العقيدة والشريعة[3].

إن المنهج العلمي في مفهوم النظرية الإصلاحية عند ابن باديس يقوم على قاعدة التكامل بين القيم الربانية والحقائق الشرعية والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة الهادفة لإعداد الإنسان الحضاري الذي يحمل معاني الكمال البشري والمؤهل لأداء الأدوار العظيمة. ولهذا نادى بحتمية الرجوع إلى المنهج النبوي في التعليم. قال رحمه الله تعالى: "...ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلّم صلى الله عليه وسلم، وفي صورة تعليمه..."[4].

حقيقة التربية والتعليم:

التربية والتعليم حقيقتان متكاملتان نابعتان من أعماق التصور الإسلامي للحقائق المصيرية إذ تأخذ في الاعتبار الأصول المعرفية– حقيقة الألوهية، حقيقة الكون والإنسان، حقيقة الحياة– والمقاصد الحضارية والتي منهما إعداد الإنسان المؤهل لأداء الوظائف الشرعية العظيمة– العبادة، الخلافة، العمارة[5]، ومن هذا المنطلق فإن التربية والتعليم يجمعان المعاني التالية:

1– حفظ الفطرة الإنسانية.

2– رعاية المواهب والاستعدادات.

3– بناء معالم الكمال الإنساني[6].

وبهذه المعاني مجتمعة فإن التربية والتعليم عملية:

أ– صحيحة المناهج التعليمية لارتباطها بالأصول المعرفية الصحيحة القرآن الكريم والسنة النبوية.

ب– واضحة الأهداف والوسائل لوضوح مناطها وغايتها وهوالإنسان.

أثر القيم القرآنية في بناء الشخصية الإسلامية

إن الاشتغال بفهم القرآن وتفسيره والتخلق بآدابه مما يرقق الإحساس الإنساني ويقوي الشعور الحضاري. ويحقق الطمأنينة النفسية والسكينة الروحية، والسعادة الدنيوية والأخروية ؛ قال صلى الله عليه

وسلم: "وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله يتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده"[7]. ولقد أشارت التجارب العملية الإنسانية والخبرات البشرية الممحصة إلى مركزية الدراسة القرآنية وأثرها على النفس البشرية، فنظرة القرآن الكريم إلى الإنسان نظرة شاملة تغطي جميع مجالات حياته.ولقد نقل الرازي رحمه الله تعالى نتائج تجاربه فقال: "ونقلت أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم..." ولقد استطاع ابن باديس أن يعمق العلاقة بين أدوار التفسير القرآني وأبعاده المعرفية وبين الغاية الربانية من التنزيل القرآني بهداية البشرية إلى الله تعالى ومن هنا ربط بين التعليم الهادف إلى تحصيل المعارف العقلية وبين التربية المعمقة الهادفة إلى إيصال الإنسان المتعلم إلى درجة الكمال البشري.وابرازا لهذه الحقيقة القرآنية انتقد المناهج التعليمية الزيتونية فقال: "...قد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة، ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أوأدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يومًا منزلة القرآن من تعلّم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك، هذا في جامع الزيتونة، فدع عنك الحديث عن غيره مما هودونه بمديد الماحل..."[8]، ومن هذا المنطلق جعل ابن باديس تفسير القرآن ركيزة علمية في عملية الإصلاح المتعدد يعالج به الأمراض في حله وترحاله، وفي مقامه وسفره، في بيته ومسجده.يصف ابن باديس عمل القرآن وفاعليته فيقول: "...القرآن شفاء للاجتماع البشري كما هوشفاء لأفراده فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله...ولا شفاء لها إلا بالقرآن ومن طلب شفاءها من غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضا..."[9]، وإن من ثمرات الأثر القرآني على النفوس تكوين الشخصية الإسلامية المتزنة البعيدة عن خلال التعصب وأدران التقليد، وهذا ما ربى عليه ابن باديس طلبته فقد رسم فيهم ذلك بالتعليم، والتلاوة والتزكية؛ قال تعالى: ((رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوعَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ))[10].

جمعية العلماء ومدرسة الإصلاح التعليمي:

معالم الإصلاح التعليمي عند ابن باديس:

المبحث الأول: الإصلاح التعليمي منطلقات ومرتكزات

المطلب الأول: المنطلقات الأساسية في إصلاح التعليم عند ابن باديس

لقد انطلق ابن باديس عند وضعه المعالم الكبرى للإصلاح التعليمي لجامع الزيتونة من منطلقات حضارية معتبرة:

1- الواجبات الحضارية- فروض النصوص الشرعية.

2- الأولويات الوطنية- التحرر والاستقلال

3- متطلبات المرحلة الزمانية والمكانية- مؤهلات النهوض الحضاري.

المطلب الثاني: المثلثات الباديسية في عملية الإصلاح التعليمية

1 – صلاح المسلمين بصلاح العلماء:

قال رحمه الله تعالى: "لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم فإنما علماء بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد القلب كله.وصلاح المسلمين إنما هوبفقههم الإسلام وعملهم به وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون..."[11].

2 – صلاح العلماء بصلاح المنهج التعليمي:

قال رحمه الله تعالى: "ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هوالذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره... ونعني بالتعليم التعليم الذي يكون به المسلم عالم من علماء الإسلام يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه..."[12].

3 – صلاح التعليم في منهج الإسلام:

قال رحمه الله تعالى: "ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلّم صلى الله عليه وسلم، وفي صورة تعليمه)[13].

ثم فصل معالم التعليم النبوي في صورة التلاوة القرآنية للتنزيل الرباني والتعليم البياني للمراد الإلهي بالقول والسلوك والسيرة ثم ذكر التمثيل التاريخي من سير السلف الصالح فعدد بعض آليات الطلب كالرحلة العلمية وبعض الفنون العلمية كطلب الفقه والحديث[14].

المطلب الثالث: المرتكزات الأساسية في إصلاح التعليم عند ابن باديس.

1- الإنسان محور الإصلاح التعليمي في فكر ابن باديس.

لقد نبه ابن باديس إلى قضية منهجية خطيرة وإلى فكرة محورية مقصدية وهي الاهتمام بالإنسان في عند وضع المناهج التعليمية والخطط الإصلاحية ذلك لأنه مناط العملية التعليمية ومقصدها فهومن العلماء التربويين الذين يرجحون الاهتمام بالحقيقة الإنسانية في العملية التعليمية من خلال تكميل جوانب شخصيته الإنسانية عكس علماء الزيتونة الذين يقدمون مطالب المادة العلمية والتي من لوازمها الارتقاء

بالمعارف العلمية على الحقائق المطالب الإنسانية ولقد صور اهتمامهم العمق الإنساني من وظيفة التعليم قال: "...وفي جامع الزيتونة عمّره الله تعالى، إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس التفسير- ويا للمصيبة- يقع في خصومات لفظية... في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أيامًا وشهورًا، فتنتهي السنة، وهولايزال حيث ابتدأ أوما تجاوزه إلا قليلاً، دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى سنته في المماحكة، بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية، فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن..."[15].

2- ضرورة المعلم الرباني.

المعلم رأس صلاح التعليم عليه مدار النجاح وتظهر ثمرة على المتعلمين ولهذا يجب على واضعي المناهج التعليمية أن يراعوا هذه الحيثية ولقد تفطن ابن باديس لذلك فعالجها فشخص مرض المعلمين فقال " فالعلماء إلا قليلا منهم أجانب أوكأجانب من الكتاب والسنة من العلم بهما والتفقه فيهما ومن فطن لهذا الفساد التعليمي الذي باعد بينهم وبين العلم وحملهم وزرهم ووزر من في رعايتهم لا يستطيع إذا كانت له همة ورغبة أن يتدارك ذلك إلا في نفسه أما تعليمه لغيره فإنه لا يستطيع أن يخرج فيه عن المعتاد الذي توارثه عن الآباء والأجداد رغم رغم ما يعلم فيه من فساد وإفساد..."[16]، وعدد بعض مؤهلات المعلم الرشيد كالإحاطة الكاملة بالعلوم والمعارف فقال: "...إن المعلمين في قسم الاشتراك يكونون من الحائزين على شهادة التخصص في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع التخصص للتعليم، وأما المعلمون في فرع القضاء والفتوى فلابد أن يكونوا ممن تخصصوا فيهما وتخصصوا في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع الخطابة"[17]، وضرورة إتقان فن التعليم ورياضة النفوس فقال: "...فالتعليم هوالذي يطبع المتعلّم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره... ونعني بالتعليم: التعليم الذي يكون به المسلم عالمًا من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناسُ دينهم، ويقتدون به فيه..."، وكمال الخلق وربانية المواقف لأن حسن اختيار المعلمين مما يقي مصارع الأجيال فقال: "..فلا مندوحة من تربية جيل جديد تربية دينية صحيحة يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم عهدا أن لا يقرعوا بابا لسلطان ولا تضعضعهم الحدثان، ولا يثني عزمهم الوعيد ولا يُغريهم الوعد بالمنصب ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب بل يرون في المتاعب وتحمل المكاره لنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم وفي عكسه المغرم..."[18]، وتمام القدرة على التأثير والفاعلية لأن من أعظم ثمرات التعليم ملاحظة مظاهر التربية على سلوكيات المتعلم ولقد انتقد ابن باديس هذه الصورة السلبية في علماء الزيتونة فقال: "...قد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة، ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أوأدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا

هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يومًا منزلة القرآن من تعلّم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك، هذا في جامع الزيتونة، فدع عن الحديث عن غيره مما هو دونه بمديد المراحل."[19].

3 – وضوح المنهج التعليمي[20]:

1 – مرحلة المشاركة: (الجذع المشترك) مدة الدراسة فيها ثماني سنوات ويدرس خلالها الطلبة المواد العلمية التالية: فنون اللغة العربية، وتاريخ الأدب العربي.

العقائد الإسلامية، وأن تؤخذ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

الفقه، بحيث يقتصر فيه على تقرير المسائل دون تشعباتها.

تفسير القرآن العظيم، من تفسير الجلالين.

الحديث النبوي، بدراسة مختارات من كتب السنة.

التربية الأخلاقية، من الآيات والأحاديث وآثار السلف الصالح.

الحساب والجغرافيا ومبادئ الطبيعة والفلك والهندسة.

2– مرحلة التخصص: لمّا كان المتخرّجون من الجامعة الزيتونية على ثلاثة أصناف حسبما يتصدّرون إليه بعد تخرجهم، رأى ابن باديس أن يفرّع قسم التخصص إلى ثلاثة فروع:

أ– تخصص القضاء والإفتاء، على أن لا تقل مدة الدراسة فيه عن أربع سنوات، يدرس خلالها الطلبة ما يلي:

– فقه المذهب، ثم الفقه العام.

– فقه آيات وأحاديث الأحكام، وعلم التوثيق، وعلم الفرائض والحساب.

ب– تخصص الخطابة والإمامة تكون مدة الدراسة فيه سنتين، يدرس خلالها الطلبة ما يلي: – صناعة الإنشاء

– والاطلاع تراث الخطب

– دراسة آيات المواعظ والآداب وأحاديثهما

– السيرة النبوية وتراث الدعوة الإسلامية

– التدرب على إلقاء الخطب والمواعظ.

ج– تخصص التعليم، تكون مدة الدراسة فيه سنتين، يدرس خلالها الطلبة ما يلي:

– الإحاطة بالفنون المقررة للتعليم

– التدرب على التعليم (التربص التعليمي)

– استيعاب فنّ التعليم (الطرق البداغوجية)

المبحث الثاني: الإصلاح التعليمي أدواء وأدوية

المطلب الأول: الأخطاء المنهجية في التعليم الزيتوني.

1 – تغليب علوم الآلة على علوم الغاية: إن إجادة علم الآلة كاللغة العربية أمر أساسي لإدراك المفاهيم الإسلامية إدراكا صحيحاً سليماً[21] لأن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلاّ بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهوواجب"[22]. يقول الباقلاني: "من أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواماً، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهاناً، ولمعجزته ثبتاً وحجةً"[23]. لكن التركيز على علوم الآلة وجعلها غاية في ذاتها يعتبر من العوائق السلبية في نجاح المنهج التعليمي ولقد أشار ابن باديس إلى هذه السلبية في المنهج التعليمي الزيتوني التي توحي بسقوط الأهداف التربوية من اعتبارات المناهج التعليمية وهل الأصل من الأفعال الإنسانية إلا تحقيق المقاصد السليمة أما طرقها فلا تعدوأن تلتزم وصف الذريعة فإذا انقلبت الوسيلة غاية فهذا عيب في المنهج التربوي التعليمي. قال ابن باديس: "...وفي جامع الزيتونة عمّره الله تعالى، إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس التفسير– ويا للمصيبة– يقع في خصومات لفظية... في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أيامًا وشهورًا، فتنتهي السنة، وهو لايزال حيث ابتدأ أوما تجاوزه إلا قليلاً، دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى سنته في المماحكات، بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية، فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن..."[24].

2 – إهمال دور الهداية القرآنية من المناهج التعليمية: إن من الأخطاء المنهجية الكبيرة في عملية التعليم تجاهل الحقائق الإيمانية وقطع الصلة الروحية بين المعرفة العلمية والأداء الحضاري للقيم العقائدية وهذا ما أدركه ابن باديس في المنهج الزيتوني فأشار إليه بقوله: "...قد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة، ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أيّ شوق أوأدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يومًا منزلة القرآن من تعلّم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك، هذا في جامع الزيتونة، فدع عنك الحديث عن غيره مما هودونه بمديد المراحل..."[25].

3 – فساد الأداء التعليمي عند المعلمين: إن من الأخطاء المنهجية الكبيرة في عملية التعليم اسناد وظيفة التعليم لغير أهلها لجهله أولقلة باعه في خبرة النفوس أوسوء ايراد العلوم بجهل مطالب المتعلمين ودرجات أفهامهم قال ابن باديس مصرحا " فالعلماء إلا قليلا منهم أجانب أوكأجانب من الكتاب والسنة من العلم بهما والتفقه فيهما ومن فطن لهذا الفساد التعليمي الذي باعد بينهم وبين العلم وحملهم وزرهم ووزر من في رعايتهم لا يستطيع إذا كانت له همة ورغبة أن يتدارك ذلك إلا في نفسه أما تعليمه لغيره فإنه لا يستطيع أن يخرج فيه عن المعتاد الذي توارثه عن الآباء والأجداد رغم رغم ما يعلم فيه من فساد وإفساد..."[26].

المطلب الثاني: الأهداف التربوية من الإصلاح التعليمي عند ابن باديس: يعتبر الإنسان محور الدراسات العلمية المتعددة ومركز الإصلاحات المرتقبة ذاك لأنه قاعدة الحضارة وأساس قيامها ومن هذا فإن أي اغفال للحقيقة الإنسانية في أي دراسة علمية في عملية إصلاح المناهج التعليمية هومخاطرة بالوجود الإنساني وإسقاط لمعاني التقدم الحضاري وانطلاقا من هذه الحقيقة ركز ابن باديس في آرائه الإصلاحية في العملية التعليمية على الأهداف المصيرية التالية:

1– صناعة الأجيال الراشدة: لقد سئل عبد الحميد بن باديس يوماً عن عدد الكتب التي ألفها فأجاب:" لقد شغلني "تأليف الرجال عن تأليف الكتب" إنها خلاصة التجربة التربوية التعليمية . فقد سخّر حياته لخدمة أمته العربية والإسلامية؛ مُعلما بصيرا أدواء النفوس ومربيا صادقا في العلاج، صحفيا أصيلا، يلوذ بقلمه ويذود، في شؤون الفكر والسياسة والدين، وقضايا المجتمع[27].

2– تعميق البعد الإيماني في النفوس: إن من أعظم الأسباب الميسرة لنجاح التعليم والتربية ربط المتعلم بأصوله المعرفية وقيمه الحضارية وإن من عوامل الصناعة البشرية الرائدة تعميق المعاني الإيمانية في الأنفس البشرية ولقد أدرك ابن باديس هذه الحقيقة الحضارية فجعلها محور منهج الإصلاح التعليمي عنده فكان همه أن يكوّن رجالا قرآنيين يغيرون التاريخ ويصلحون الأمة قال رحمه الله تعالى: " فإننا –والحمد لله– نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ، نوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجلا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم جهودنا وجهودها"[28].

3– تعميق القاعدة العلمية وتثبيتها: لقد طرح ابن باديس مبدأ إتقان الطلب في العلوم الشرعية وتعميق الدراسة القاعدية في جميع التخصصات العلمية من خلال وسيلتين هما:

أ – تعميم الفنون العلمية فقد اقترح المواد العلمية التالية

– علوم اللغة العربية: النحو والصرف والبلاغة وتراث الأدب العربي.

– العقيدة الإسلامية– الفقه الإسلامي– تفسير القرآن العظيم– الحديث النبوي.

– التربية والأخلاق– الحساب والجغرافيا ومبادئ الطبيعة والفلك والهندسة[29].

ب– سعة الحجم الزمني فقد اقترح ثماني سنوات لمرحلة المشاركة– الجذع المشترك–

أما التخصص فقد قسمه إلى ثلاثة أقسام فقال: "...أن المعلمين في قسم الاشتراك يكونون من الحائزين على شهادة التخصص في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع التخصص للتعليم، وأما المعلمون في فرع القضاء والفتوى فلابد أن يكونوا ممن تخصصوا فيهما وتخصصوا في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع الخطابة..."[30].

أ – تخصص القضاء والإفتاء مدة الدراسة أربع سنوات فأكثر وموادها الفقه المقارن وآيات وأحاديث الأحكام، وعلم التوثيق، وعلم الفرائض والحساب. ومؤهلات القاضي هي:[31]

– سعة الاطلاع على الشريعة الإسلامية

– الدراية بفقه الواقع

– حسن تنزيل النصوص الشرعية على النوازل

ب– تخصص الخطابة والإمامة، مدة الدراسة سنتان. وموادها تراث الخطب والسيرة النبوية والخطابة العملية ونصوص المواعظ القرآنية والحديثية ومؤهلات الخطيب هي:[32]

– القدرة على الخطاب التواصلي مع المخاطبين

– إتقان تشخيص الأدواء الإنسانية وبراءة علاجها.

– قوة التأثير على النفوس والتغيير فيها

ج– تخصص التعليم مدة الدراسة سنتان وموادها الإحاطة بفنون التعليم مطالعة وتطبيقا ومؤهلات المعلم هي[33]: – الإحاطة بنفسيات المتعلمين– التنويع في استعمال الأدوات التعليمية – مراعة مراتب الخطاب التعليمي ودرجات المتعلمين.

4–تكوين الملكة الاجتهادية عند المتعلمين: وذلك من خلال توسيع مدارك النظر العلمي في المصادر الشرعية وتأهيلهم لإتقان التخصص من خلال التعامل مع النصوص والنوازل فقد اقترح ربط سعة الإحاطة بالإحكام الشرعية بالنظر في أدلتها الشرعية ونظائرها من النوازل العملية[34].

الخاتمة: إن المنهج العلمي في مفهوم النظرية الإصلاحية عند ابن باديس يقوم على قاعدة التكامل بين القيم الربانية والحقائق الشرعية والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة الهادفة لإعداد الإنسان الحضاري الذي يحمل معاني الكمال البشري والمؤهل لأداء الأدوار العظيمة ولقد استطاع ابن باديس أن يعمق العلاقة بين أدوار التفسير القرآني وأبعاده المعرفية وبين الغاية الربانية من التنزيل القرآني بهداية البشرية إلى الله تعالى ومن هنا ربط بين التعليم الهادف إلى تحصيل المعارف العقلية وبين التربية المعمقة الهادفة إلى إيصال الإنسان المتعلم إلى درجة الكمال البشري.ولقد وصف عمل القرآن وفاعليته في أداء المناهج التعليمية فقال: "...القرآن شفاء للاجتماع البشري كما هوشفاء لأفراده فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله... ولا شفاء لها إلا بالقرآن، ومن طلب شفاءها من غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضا..."، إنه الإبداع البشري أن يهب الداعية المصلح جهد نفسه للإصلاح القوي ورجاحة عقله للتعليم الفعال.

الهوامش:

1- [illegible] 2010/03/11 ص 5

2- الخطيب، خصائص التصور الإسلامي، دار الشروق، 1982، ص 41

3- الشهاب، دار الغرب الإسلامي ط 1 / 2001، مجلد 10 السنة 11 ص 536

4- جابر عبدالحميد، الأسس النظرية – الاستراتيجيات والفاعلية– / دار الفكر العربي الطبعة الأولى / 1998

5- عبد الرحمن الباني، مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، المكتب الإسلامي، ط 2 / 1983 ص 14

6- رواه مسلم عن أبي هريرة.

7- الشهاب، دار الغرب الإسلامي ط 1 / 2001، مجلد 10 السنة 11 ص 538

8- ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، طبعة وزارة الشؤون الدينية / ط1 1982 ص 190.

9- البقرة: 129

10- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 535

11- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 536

12- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 536

13- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 537

14- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 538 .

15- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 538.

18- آثار ابن باديس/ ط 1 / 1985، ج 4، ص 59

19- محمد قنانش: المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية (في فجر النهضة الحديثة) المكتبة الشعبية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر / ص 29.

20- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 538.

21- آثار ابن باديس/ ط 1 / 1985، ج 4، ص من 57 إلى 61

22- "أضواء على الندوة الإسلامية العالمية في ماليزيا، ندوة دور اللغة العربية في نشر الدعوة الإسلامية"، مجلة رسالة الجهاد، العدد 63، السنة السادسة، جمادى الآخرة 1397هـ/ فبراير 1988م، ص 12، 13.

23- ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، (القاهرة: د. ن، د. ت) ص96.

24- أبوبكر الباقلاني، إعجاز القرآن، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط1، 1978م، ص3.

25- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 538.

26- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 538.

27- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 538.

28- ع بن قينة، أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص40

29- تركي رابح، ابن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، ص228/عمار الطالبي، مدخل إلى آثار ابن باديس (ابن باديس حياته وآثاره) ج1 /ط1 دار اليقظة العربية، بيروت 1968 ص79.

30- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 538.

31- آثار ابن باديس، ج 4، ص 59

32- آثار ابن باديس، ج 4، ص 58

33- آثار ابن باديس، ج 4، ص 58

34- آثار ابن باديس، ج 4، ص 58

35- الشهاب، مجلد 10 السنة 11 ص 538.